ملحمة الناصريّ

. محمود صالح .

إلى كل الذين ساروا على درب الجلجلة

لم أكنْ أشتهيك تماما !
فكيف تسلّقت فوضايَ، أشْعَلْت بالنَّزْف أُفْقَ الرؤى؟
كيف زيَّنْتني بالبروق وموسَقْتني قمراً يشتلُ الضوءَ عبر المدى؟
كم تفيَّأتُ أبعادَ طيفك، حتى تهدّلَ مني الشّذا.
حافياً في ظلالك أحبو، لأرقى الذُّرى
خاشعاً في محاريبِ عينيكِ أسمو، بخطوتيَ العائدهْ.

لم أكن أشتهيك تماما !
فما بالُ شعرك دجّجَني بالينابيعِ
أطْلَقَني طائراً للعناقِ الوجيعِ
وأسْلَمَني للدروب العتيقة، للعشب تَحْطِبُهُ شهقةُ العابرينْ
آه كيف أُلْلِمُ مسراكَ فيَّ، أُرَمِّمُ سقفَ الغياب الذي نَزَّ بالغائبينْ
أيها الناصريُّ تقدّمْ، بذاكرة الفلِّ والياسمينْ
لم أزلْ واقفاً في انحنائي
على قلقٍ، عالقاً باشتهائي
بلا وطن، شامخاً بالحنينْ.
سيدي...
ملْتُ ملءَ ذراكَ
تنسَّمْتُ لونَ صداكَ
وعرَّشْتُ في الهُدْبِ، مشَّطْتُ نخلَ رؤاكَ
ووسط سناكَ
مشيت شهيداً، لأنهضَ من وحشة القبرِ والجثّة الهامدهْ.

أيُّها الناصريُّ...
فراشاتُ جرحي تحنُّ لضوئكَ فاغزلْ نزيفي قطوفَ الحريرْ
جانحي ينتشي بالرحيلِ
ويعمُرُ بالمستحيلِ
يحوكُ الرفيفُ الرَّمادَ بلاداً، تميلُ ثماراً،
على خطوتي في المساءِ الأخيرْ.
إقتنيتُ المراثي، وما ذُهِلَ الخَلْقُ من آهتي، لم تصلْ جمرتي للمرايا
لأكشط جلدَ الظلامِ الوثيرْ.
سيدي...
بوحُنا المرُّ مَنْ يَشتريه؟
إذا أصبحَ الجرحُ فاكهةَ المائدهْ؟!

أيُّها الناصريُّ...
اصْطَهِدْني بشمسِ النبوءة،
قُمْ هاتهِ الصَّعْبَ حتى أُطرِّزَ حُلمي فصولا
فما كانَ لونُ دمائيَ هشّاً، وما كان غيمي بخيلا.
فقُمْ، تلك أشرعتي تُزهرُ الصَّخرَ، تُعلنُ أعراسَها
تُسندُ الريحَ حتى تهجّي بطولاتها والصَّهيلا.
سيدي...

يَعْبُرُ الآن نزفي وحيداً، بآفاقه المستنيرة، أَرْوقةَ الجُلْجُلَهْ.
ليس من غيمة هلّلتْ مُقْبلهْ،
يا تُرى، ما أُدشّنُهُ يخدشُ الكونَ!؟
بصَّرْتُ للعمرِ، فانزلَقَ القلبُ في الغصَّةِ الصَّاعدهْ.

أيُّها الناصريُّ...
سأرفعُ أعلى القبابِ لبدءِ القيامة، أخلعُ أسمال بيدائنَا
كي تحطَّ النوارسُ في دِمَنِ الصَّدرِ، كم خيبةٍ في سمائي
وكم نَفَسٍ ميِّتٍ في مسائي
وما زلتُ في حَضْرةِ الغيبِ أُسْبَى، أدبُّ دبيبَ القرى في المواويلِ
أجمعُ في الظنِّ حتى تُضيءَ، أُهرِّبُ أوسمتي لغيومكَ، أمطرْ
على حُلْكةِ الدربِ فجراً، فكم غبتُ في غابةِ الآخرين
ولكنَّهمْ غيَّبوني بغربتي القاتلهْ.

أيُّها الناصريُّ...
سألتُهمُ النوَّ، أقتنصُ الصَّحوَ، حين سأعصرُ خصرَ السَّحابة
جرَّبتُ جَرْيي لألحقَ وهجَكَ، أشعلتُ مجمرتي في مهبِّكَ
فارسمْ على الطينِ هيئةَ طيرٍ، وحلّقْ بموْجي إلى أن نخضَّ الفضاءَ
فطوفانُنا في العراءِ
يسنُّ أسنَّتَهُ في الخفاءِ.
وشُدَّ دمي من مهاوي الرّدى، علَّني أهبطُ اليومَ في ملكوتكَ.
جُرَّ الصّحارى لنبعكَ، وافتحْ ذراعيكَ للقادمينَ
فلا بدّ أن تصلَ القافلهْ.

أيُّها الناصريُّ سلاماً...
لخفقٍ تنامى إلى خاطري، رَشَّ موجدتي في عروقِ المآذنِ
غطَّى طحالبَ وجدي بأغصانِ غارٍ، وطوَّقَ أوردتي بنجومٍ
تجاسرَ خيلٌ بمحرابها.
حان يا سيدي موعدٌ، تصعدُ اليوم من رعده مارداً
تقحمُ القمَمَ المُدْلَهِمَّةَ، تُسلمُ مفتاح فتحكَ أزمنةً هُيِّئَتْ للهبوبِ
تمرُّ بقيظِ الشوارعِ،
من شعرِها تُشعلُ الأفقَ حتى تغيّبَ عن غرّةِ الأرضِ
أثلامَ طغيٍ وتيجانَ بغيٍ، وتمحقُ أركانها الباطله.

أيُّها الناصريُّ...
انعطفْ بالسَّواقي لأسقى، لأستبشرَ الآنَ بالمعجزات
لأنقضَّ مثلَ الحريقِ على يابسِ العمرِ، دعني أُشعَّ بموتي قليلاً
أنا ما ذبلتُ، تأهَّبتُ في الجوعِ،
أسرجتُ قحطي بواحاتِ وحيكَ
فانتعشَ الظامئون بمائي، ورشّوا الطيوبْ.
لن أهيِّئَ عكّازتي للأصيلِ، فما كنتُ آلفُ طيرَ الغروبْ.
بين جرحٍ وجرحٍ أُضيءُ الثرى

بين موتٍ وموتٍ إليكَ أتوبْ.
سيدي...
إتّكأتُ على شرفةٍ في يديكَ، لأُعتقَ أصدافَ حزني
وعتّقتُ ملحمتي في خوابيكَ
فاقطفْ رجائيَ عن كرمةِ التيهِ
واصرخْ ليأتي البشيرُ ببشرى الخلاصِ،
معًا سنهزُّ جذوعَ النخيلِ
فطوبى لسيفكَ، تزهو شريعتُهُ العادلهْ.

أيُّها الناصريُّ...
لقد أسلموكَ، لقد صلبوكَ، لقد قتلوكَ، وما كنتَ أنتَ
ولكنهمْ أسلموني مرارًا، ولكنَّهم صلبوني طويلاً
ولكنَّهم قتلوني كثيرًا، وما كنتُ أنتَ.
فكم مرّةً سوف يُسلمُني صاحبي للصليبِ؟
وكم مرةً سوف أُقتلُ يا ناصريُّ؟..
لأُمطرَ بالسرِّ سربَ السنونو، وأَسْتدرجَ الوحيَ للروحِ
هل كنتَ أنتَ المهيَّأَ باسمي، لتولدَ في بيتَ لحمٍ؟!
وكيف ستَعْبر من بيتَ لحمٍ إلى الناصرهْ؟
إنَّهمْ شطروا الأرضَ مثلَ الرَّغيفِ
وما تَركوا كسرةً للمضيفِ
فكيف ستخرجُ من هذه الدائرهْ؟
إنَّني صِنْوُكَ الآن فاخرجْ إذا شئتَ من وجعِ الخاصرهْ
آهِ يا ناصريُّ، متى يُوصَدُ الجرحُ في السرَّةِ النازفهْ؟

أيُّها الناصريُّ انتصرْ...
كي أُودِّعَ منفايَ طيَّ بريقكَ
سرْ بي إلَى قَبَسٍ فيه عُذريَّةُ البوحِ، واتركْ جديلةَ ثأري
تدسُّ بشائرَها في الخرابِ
ليسطعَ نجمُكَ ملءَ الترابِ
وخذْ شكلَ روحي، وروِّحْ عن الدوحِ ريحَ اليبابِ.
متى سوف ترسو طيورُ الغيابِ
على الشطِّ، يا ناصريُّ، لأصطادَها بالدلالْ؟
آهِ من وطنٍ وَمْضُهُ رقَّةُ البالِ،
أنسامُهُ مرَّ فيها الزمانُ فمالْ.
آهِ من وطنٍ أَنْشبَ الشُّهبَ في القلبِ،
فاعشوْشبَ الجَدْبُ طيبًا وطابَ الوصالْ.
آهِ من وطنٍ، خانَهُ الزَّمَنُ.
آهِ من وطنٍ، باعَهُ الوطنُ.
آهِ يا ناصريُّ، حلالٌ عليَّ وصالُ المنافي
حرامٌ عليَّ الوصالُ الحلالْ!
سيدي...

أيُّ جائزةٍ أنتَ للمتعبينَ، أُضاعفُكَ الآن فانطقْ بمهدكَ
كي ينطقُ الكونُ باسمكَ، كم قطَّرَتْكَ الليالي، لأشربَ ضوءَكَ.
قمْ من سباتكَ، جرجرْ دمي كالقطيعِ إلى شهقةِ العاصفهْ.

أيُّها الناصريُّ انتصرْ...
مرّتين، لأنتشرَ الآن مَدَّ جناحكَ، كنْ فيَّ حتى أكونْ
أنتَ أَسْكَنْتَني غيمةً تُغرقُ البحرَ، أَوْرَثْتَني موجةً تُذْهِلُ الأرضَ
أودعتني نجمةً تصلبُ الليلَ حتى صُلِبتُ.
انتصرْ في دمي كي أكونْ.
كم توقَّفتُ عند مراياكَ حتى أرى الجرحَ أجملَ، حتى أراني.
تُرى كان جرحُكَ جرحي على مرِّ هذا الزمان!؟
هنا أولَموا لمصيركَ فيَّ، فَصُنْ جدولي كي أصونَكَ.
وحدي أُقدِّسُ سرَّكَ، أَغْمرُ بحركَ، أطلعُ من أُمنياتكَ،
لكنَّني كيف أحميكَ من حُلُمٍ أنتَ سيدُهُ؟!
آه يا سيدي من يهوذا الذي نصَّبَ الغدرَ حارسَهُ:
إنَّه ينهضُ اليوم ألفَ يهوذا،
ويمشي عصيًّا على الصلبِ حتَّى الثَّمالةِ.
عجِّلْ لندفنَ أشباحَهُ،
أو فعجِّلْ لندفنَ في غربةِ الغيبِ أضغاثَ أحلامنَا الزائفهْ.

أيُّها الناصريُّ انتصرْ...
للزمانِ الكئيبِ، انتصرْ.
للغلامِ الغريبِ، انتصرْ.
للبتولِ التي بَتروا طهرَها، واسْتَدلّوا عليكَ
فمرَّتْ صواعقُهُمْ فوق أكوامِ طهركَ
والآن مدّوا خرافَتَهُمْ سُلَّمًا فوق قتلايَ واصّاعدَ الهيكلُ.
جرحُنا تَقْطرُ الشمسُ منه، فأنتَ به المشْعَلُ.
للفجيعةِ ألفُ ذراعٍ، وما من شراعٍ تهادَرَ أيقظَ حلمَ الضحايا
أنا أنتَ والموتُ تَوْأَمَنا نزفنا والوصايا.
ملءَ أحجارِنَا تنبتُ الآن كفُّ السماءِ
فقدسُكَ قدسي، وهيكلُهُمْ للفناءِ.
فهاتِ يديكَ، أعنّي، فكم نهبتني رياحُ الأصيلْ.
وهاتِ يديكَ أَغْشني، لأجمعَ شملَ البراري
وأغسلَ أوجاعَها بالصهيلْ.

أيُّها الناصريُّ أجبني، متى نَشْربُ الماءَ شَهْدًا بقانا الجليل؟!
آه يا سيدي...
إنَّنا أمَّةٌ تخبزُ الصبرَ صبحًا
وتلبَسُ أشلاءَها بيرقًا
تُصلَبُ اليومَ في كلِّ وقتٍ
وفي صَلْبِهَا لم تزلْ واقفهْ.

مخيَّم نهر البارد
لبنان